الفصل الثاني

علم الاجتماع المعاصر والرابط الاجتماعي

عاشت المجتمعات المعاصرة، أحداث الساعة المتسارعة بحالة حيرة نابعة من تقهقر الوعي السوسيولوجي للراهن الاجتماعي، ودخوله في أزمة تحديد المرجعيات الفكرية لعلم الاجتماع، بنظرة تاريخية يمكن من خلالها إعادة صياغة الوعي العلمي الحاضر، بمقتضيات التغير الاجتماعي الذي تميز بالسرعة والتداخل في شتى مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

كان التحدي القائم، هو في بناء معرفة سوسيولوجية مستجدة ضمن السلسلة التاريخية لنمو المعرفة بالمجتمعات الحديثة والعوارض اللاحقة بها فالتفاعل بين الأفراد وقضاياهم المعاصرة تكاد تفلت أو ترفض أي قراءة ليست محايثة للواقع العيني، في حين أن المتطلبات المعرفية للقائم بالمعرفة السوسيولوجية تفرض عليه عدم انكار الوعي الماضي والبحث عن صياغة جديدة لما يطلق عليه علم الاجتماع المعاصر. من هذه الزاوية فقط يمكن طرح اشكالية الرابط الاجتماعي وما دخل عليه من تحديدات اجتماعية في ضوء ماضي المعرفة بالمجتمع وواقع التفاعل بين الأفراد.

ان المشكلات التي دخل فيها الأفراد في مجتمعات ما بعد الحداثة، تتميز بميزتين وهما عودة التحديد الثقافي للوجود الاجتماعي و حضور المنظور التاريخاني في صلب التجربة الاجتماعية للأفراد.

ترتبت عن هذه الوضعية الجديدة، مسؤولية كبرى ملقاة على عاتق المعاصرين من علماء الاجتماع وهي أولا البحث عن نماذج متكاملة تصف الواقع الاجتماعي المشكل من تمثلات الافراد لواقعهم الاجتماعي وثانيا مواجهة الإحباطات المتولدة من تباعد المسافة بين هذا الواقع المعاش والنظرية السوسيولوجية بصفة عامة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولى القضايا التي لم يعد ممكن قراءة الرابط الاجتماعي بمنظورها وهي قضية الوعي الجمعي المتجسد في المجتمع العالمي. فالتجارب الفردانية وتكاثر الرؤى وتأويلات الواقع لدى الفاعلين أنفسهم قد أصبح يرشح أكثر من أي وقت مضى بعد الجماعة كوجود واقعي متجسد تؤسس فيه معنى الرابط الاجتماعي. (Martuccelli, Sociologie de la modernité, 2007)

انه ميلاد سوسيولوجيات، تعكس تأويلات مختلفة لراهن تلك الجماعات، ضمن نماذج فكرية تعكس الرؤية المنهجية للوقائع ضمن قراءات تاريخية تعبر الماضي لوصف صورة المستقبل لحياة الأفراد والمجتمعات.

ان المسافات أصبحت تكبر بين معطيات الحاضر الذي عايشه علماء الاجتماع المعاصرين وماضي المعرفة السوسيولوجية، فبنية المجتمعات توجهت نحو تحديدات لم يكن لها نموذج ماضي وبالتالي، فإن عوارضها اللاحقة بمستوى الوعي الفردي بالذات وبالآخر ستشهد لا محالة تأثرا واعادة تعريف الهوية الفردية، استجابة لما يمكن اعتباره متغير أساسي لهذه المجتمعات وهي الثورة الرقمية والتكنولوجية وتراجع الأنظمة الشمولية كالاتحاد السوفياتي وانتشار الثورات السياسية في شتى الأقاليم والبلدان .

معرفيا كان حريا بعلماء الاجتماع وذاك حالهم تنويع المداخل النظرية والبحث في تاريخية المعرفة السوسيولوجية، عن موارد فكرية وفلسفية تفي بغرض الفهم الواقعي لتفاعلات الأحداث والتي من دون شك تؤدي الى اعادة صياغة موضوعات الرابط الاجتماعي بمرجعيات جديدة.

توجه علماء الاجتماع ضمن هذا المنظور الى تحليل الانظمة الجزئية للتفاعل الانساني ضمن نطاقات ضيقة، تسمح بتتبع تفاعلات الذات وتأويلاتها لواقعها بعيدا عن المنظورات الجاهزة. ان الذوات تتفاعل في جو من التخالف وليس التآلف وهي اولى الملاحظات الواجب اعتمادها في التحليل السوسيولوجي للرابط الاجتماعي بالمجتمعات المعاصرة. حيث ان الامر يتعلق بالتراجع عن مقولة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاندماج الاجتماعي التي كانت اساس النقاشات الكلاسيكية لهذه المسالة الجوهرية.

ان وجه التاريخية هنا يبرز في كون نقطة الارتكاز التي سيتولد منها التحليل السوسيولوجي المعاصر للرابط الاجتماعي، ينطلق من مقولات طرح فكرة الأنوميا "لدوركايم" وهو تعبير عن مثبطات التنظيم الجمعي الوارد في التقسيم الاجتماعي للعمل والذي لم يتخذ الحجم الكبير في النقاش السوسيولوجي ربما لإمكانيات التعليل السوسيولوجي بالعودة للدولة الراعية آنذاك.

1. التحليل السوسيولوجي للرابط الاجتماعي وربطه بالانتقال لحياة الحضر الياس نوربرت Norbert Elias(1897-1990)

يشبه إلياس المجتمع بطاولة لعبة الشطرنج، حيث يتحرك الفرد في اتجاهات مضادة لبقية الأفراد، على ضوء تحركاتهم وهذا ما يشير اليه بمفهوم التبعية الذي يقصد به رباطا بين الأفراد لتشكيل صورة مجتمع بوجه غير مخطط له سلفا وانما هو مؤسس على ارادة مشتركة وقصدية بين هؤلاء الأفراد.

يبرر موقفه هذا، بكون مستوى الغموض الذي يكتنف مصطلح مجتمع، لا يسمح باستقراء تشكله كغاية في ذاته أمام النماذج المتعددة للتجمعات البشرية الممتدة عبر القارات الخمس.

بناء على ما سبق فان "نوربرت الياس" كان يهدف من مفهومه الجديد للرابط الاجتماعي، بحث امكانيات فهم كيفية انتقال الأهداف الفردية الى أهداف مجتمعية، تجاوزا للصياغة الميكانيكية، غامضة الكينونة الطبيعية والروحية التي لم يفصل فيها فيبر ضمن توجهه العقلاني (Martuccelli, Sociologie de la modernité, 2007)، خاصة في ضوء انسداد الطريق أمام التفسيرين الطبيعي والديني، ما يتيح الطريق أمام طرح اشكالية الرابط الاجتماعي، من زاوية جديدة وهي فهم الفجوة بين الفرد والمجتمع كمشروع عام للسوسيولوجيا المعاصرة. حيث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت صياغة موضوع الرابط الاجتماعي. هي لب اهتمامه ضمن مناقشة هذه الفجوة ومن هنا كانت الاضافة التي ميزت أعمال "الياس نوربرت".. حيث ركز على أن العقلانية هي شكل من عدة اشكال اخرى ضمن تجليات الحياة الاجتماعية في البيئة الحضرية.

تعد أحداث الحياة اليومية بالنسبة ل"إلياس" المخبر الأساسي لطرح قضية الرابط الاجتماعي، وتصرفات الأفراد والعالم لبناء تعاضد بشكل ما بين الأفراد، لبناء نموذج مجتمع ما، تماما مثل علاقة الحجارة بالبيت وهو مثال يشرح كيف أن العناصر الفردية العديدة تشكل وحدة متماسكة لا يتضح بناءها من عناصرها المفردة.

يبقى أن الخيار الأساسي في تقدير "الياس" لتفادي الانحياز الى أحد طرفي المعادلة "فرد مجتمع" هو البحث عن كيفية انسجام الخيارات الفردانية والشخصية وباقي المتطلبات اللاشخصية. فوفق التجارب اليومية، يصعب تحقيق الانسجام التام بين هذين المطلبين، لذلك فإن الياس يعتقد أن تلك الهوة النابعة من التضاد هي في حد ذاتها لصالح الكل المجتمعي، لأنها في النهاية ستحسم بشكل ما لصالح أحد الأطراف الداخلين ضمن عملية التبعية ومن ثم اعطاء وجه أكثر انسجاما للكل الاجتماعي المتشكل في النهاية.

اعتقد الياس أن لدراسة الرابط الاجتماعي دراسة سوسيولوجية، وجب أولا تجاوز المقابلة بين الفرد والمجتمع واقترح بالمقابل فكرة التضاد الذاتي بين الأفراد كمجال تفاعلي أساسي، من خلاله تنسج التنشئة الاجتماعية ترتيبا التشكل الفردي والتشكل المجتمعي بصفة متوازية (Martuccelli, Sociologie de la modernité, 2007) يمكن أن يعطى معنى للمجتمع ومعنى للفرد على السواء في صورة لا تظهر تضادهما.

ربط "الياس" عملية التنشئة الاجتماعية بالحياة الحضرية وتنوعها حيث اعتبر ان الافراد يتعلمون عبر العديد من مستويات التفاعل، اساليب ربط العلاقة مع بقية الافراد وفنيات اخراجها والتحكم فيها. وهي اساليب تتلخص في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التعبيرات الشعورية والعاطفية التي تستغل لفهم التموقع الفردي وكيفية الانتقال بهذه المشاعر الى صياغة موضوعية تتجاوز العدائية وتدخل في باب المدنية والتحضر.

تأخذ العلاقات الوظيفية بين البشر وانماط مجتمعاتهم، ألوانا عدة حسب نوع المجتمع، لذلك يعمل الافراد على اعادة تنظيم مشاعرهم وغرائزهم تبعا لنمط الحياة ووفق خصائص المجتمع، الذي يواكب التفاعلات اليومية.

إن الإنسان الاقطاعي، كما يصفه "نوربرت الياس"، لا يتفاعل مع اقرانه بنفس القيم والمشاعر التي تلزمه في المدينة، وعلى هذا الاساس، يعتقد ان الفرد يقوم بالتعديل الذاتي في جو تفاعلي، حيث "تنتظم أعمال العديد من الافراد دائما في سلاسل طويلة من السلوك والعمل، حتى يكون هناك مغزى لكل عمل وسلوك فردي وبهذه الطريقة يكون كل شخص في الواقع مرتبطا فعليا بسبب تلازمه العملي مع افراد يحيا معهم ويكون بذلك عضوا في السلاسل التي يشكلها الاخرون ويكون كل واحد اخر ، بشكل مباشر او غير مباشر عضوا في سلسلة تشمله هو ايضا فيما تشمل" (نوربرت، 2014، صفحة 30)

هكذا فإن عملية تهذيب الفرد حضاريا، كانت هي لب الاشكال السوسيولوجي المتعلق بالرابط الاجتماعي بالنسبة ل"الياس"، اذ يتم ذلك وفق وجهين مزدوجين: "الأول من خلال تطوير الضبط التهوري والثاني من خلال تركيز سلطة الدولة منذ زوال الاقطاعية لغاية المرحلة المطلقة" (Martuccelli, Sociologie de la modernité, 2007, p. 233) ، حيث يكاد يتطابق هذا التأويل الذي أعطاه الياس مع مسألة تطور العصبية التي اشار اليها بن خلدون من قبله بقرون. إنه باختصار انخفاض وتهذيب التضاد بين المجموعات وفي نفس الوقت نمو فكرة الدولة من خلال سلسلة الرابط الاجتماعي، الذي يجد من خلاله الأفراد أنفسهم، قد انخرطوا بشكل واعي أو بشكل غير واعي في حلقة اجتماعية واسعة فيجدون أنفسهم مجبرين على ايجاد مساحة لإعادة خلق التوازن والوفاق الاجتماعي، بعيدا عن النزعات العدائية. وهذه الحالة تبلغ ذروة توازنها في المدينة وفي اطار الحياة الحضرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالدولة كقالب لتلك المدينة، ان وعيها الفرد على أنها خيار، يترتب عليه بذلك، ضرورة هيكلة صلاته مع الناس على ضوئها، فستساهم بالتالي في تعويضه بالنجاح والرضى كبديل عن الارتباط القديم بالأواصر العائلية والجماعية المباشرة، وسيجد الفرد ، أن علاقاته مع باقي الافراد في المجتمع، وحتى منهم أولائك الذين لا يعرفهم بصفة خاصة، هي علاقات تفاعلية ضمن اتجاهات عديدة، لا يمكن التحكم فيها بالرابط العائلي أو العشائري الضيق، لكنها على رغم من تباعد المصالح الشخصية، عن مصالح بقية الأفراد فإنه سيجد آلية تفاعلية يسميها "الياس" بعلاقة التبعية التي تسمح لكل فرد بتحقيق مصالحه من خلال ما يسمح به الكل الاجتماعي من فرص لتحقيق ذلك بالعودة للعديد من القدرات النفسية والعقلية والاجتماعية .....الى غير ذلك.

2. الرابط السوسيولوجي في المنظور البنيوي

ان البصمة التطورية والتوجه التاريخاني اللذان ميزا عصر ما بعد الحداثة، شكلا ميلاد ثان لعلم الاجتماع في عملية خلق فهم جديد للعالم بالعودة الى أصول المجتمع في بنيته التاريخية وتمظهراته الآنية.

تميز الفكر السوسيولوجي في التاريخ المعاصر بالتفتح على جملة من التخصصات على رأسها علم النفس، البيولوجيا والانثروبولوجيا، حيث صاغ علماء الاجتماع المحدثون نماذجهم التحليلية لمجتمعاتهم ضمن لواء التحليل البنيوي، والجدير بالذكر هنا أن اشكالية الرابط الاجتماعي، كانت هي لب التفكير وملتقى المناقشة والاضافة في هذا المضمار.

فلقد قام مجموعة من السوسيولوجيون والانثروبولجيون وعلى رأسهم "لفي شتراوس" و"التوسير "و"بورديو" ....بالمزاوجة بين مفاهيم جوهرية كالتوافق الاجتماعي، الديمومة والنظام الاقتصادي والديني.

شكلت هذه المفاهيم البصمة الجديدة في قراءة تطور المجتمعات في سلسلة التاريخ بعيدا عن الحتميات، وعرضت بذلك النظرية الوظيفية والبنائية الوظيفية الى صدمة معرفية وتجلى ذلك من خلال اقحام التوجه الفينومنولوجي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوجودي، على العديد من أفكار الآباء المؤسسين، أمثال "ماركس" و"فيبر" و"دوركايم" و"بارسونز".

أصبح بذلك أفق التحليل السوسيولوجي للرابط الاجتماعي مبنيا، على قاعدة الفهم للممارسات والعلاقات الاجتماعية والتجارب الفردية اليومية وربطها بكلية المجتمع بالاعتماد على بنى لا مادية ولا حتمية من خلال توظيف علم النفس الادراكي(Piaget) وعلم اللسانيات(Roland Barthes) والانثروبولوجيا(Claude Lévi-Strauss).

كما انقسم النقاش البنيوي في مهد النظرية السوسيولوجيا الفرنسية الأولى، بين مواضيع ثلاث أساسية وهي:

- بنية المعرفة (Michel Foucault)
- بنية الوعي(J.Lacan)
- بنية المجتمع(L.Altusser)

وهذا الأخير هو من يهمنا في مناقشة مفهوم الرابط الاجتماعي في أساسه النظري والابستيمولوجي.

أ. الرابط الاجتماعي وفق التجديد الماركسي ألتوسيرL.Altusser (1918-1990)

لقد محى L.Altusser تحت لواء الالهام الماركسي، الفرد واحتفظ بالبنية الاجتماعية الكلية، كوحدة للتحليل حيث وبالرجوع الى المبادئ و التوجهات البنيوية، كان لزاما أن يجري القطيعة الابستيمولوجية، مع فكر "ماركس" على أساس اعادة بناء الأفكار الماركسية على نحو ليس ماركسيا أي رفع الحتمية من ساحة التحليل. (Lallement, 2012)

ضمن هذا التوجه البنيوي، انطلق من مرحلة تاريخية دقيقة شكلت نقطة بدء نشاطه الفكري، حيث توقف في المسائل الأولى التي مر بها ماركس في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بداياته مع الفكر الهيجلي. ومن ثم قام بتجريده من ماديته من خلال الدفع به في مسارات الفكر الوجودي .

بالعودة الى نقطة التقاء "ماركس" وهيغل" كانت تلك هي المناسبة الأساسية لبناء موضوع الرابط الاجتماعي، بالنسبة ل "ألتوسير" من خلال بعدها التاريخاني وعلى أساس الجدلية المادية. حيث أضاف عليها، معنى المعقولية والقصدية، فاتحا بذلك بابا جديدا لفهم تطور الرابط الاجتماعي في سياق التطور الاجتماعي الكلي.

كانت اضافة "L.Altusser" دقيقة جدا تتمثل، في تحرير الفكر الماركسي من الحتميات الاقتصادية أثناء دراسة التشكل الاجتماعي لبنيات المجتمع.

كما كان ادخال البنية الأيديولوجية في موضوع الرابط الاجتماعي الفارق الحاسم مع "كارل ماركس" حيث وظفها L.Altusser في فهم حركية المجتمع من خلال مبدأ تفسير الكل الاجتماعي في مجال سلطة الدولة على الفرد باستخدام القوة الرمزية (الثقافة ، الفن ، الأسرة ،....) والقوة المادية(الجيش، البوليس القانون..). لقد اجتهد في توضيح كيف أن هتين القوتين تشتغلان في نفس الاتجاه رغم اختلافهما البنيوي، في مجال أداء الفعل الكلي وتوجيهه.

ضمن هذا السياق المعرفي طرحت فكرة الرابط الاجتماعي لدى "التوسير" لتكون بؤرة تحليل سوسيولوجية لبنية الطبقات الاجتماعية وعلاقتها بالكل الاجتماعي، بعيدا عن الحتميات المادية ولكن ضمن بنى متراكمة التشكل وفق القراءة التاريخية (Lallement, 2012).

على أساس فكرة الكلية اتجه التحليل البنيوي لمناقشة سوسيولوجية الرابط الاجتماعي، كنوع من الالتزام واثبات التراكمية التاريخية في مجال السؤال السوسيولوجي، الذي طرحه الآباء المؤسسون ففي حالة البنيوية كان ماركس هو المرجع الذي تم تعديل مواقفه لإحياء فكرة الرابط الاجتماعي كونه قد زود البنيويون، بمفاتيح فكرية نظرية ومفهومية لقراءة الواقع الحديث للرابط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعي، لاسيما في اطار الصراعات الطبقية التي لا يمكن انكارها على الأقل في جانبها المورفولوجيا.

ب. النظرية البنيوية التكوينية لقراءة موضوع الرابط الاجتماعي pierre Bourdieu (1930-2002)

ان انكار قضية الصراع لمدة طويلة جعلت السوسيولوجيا الفرنسية خاصة، تغفل عن جانب مهم في موضوع الرابط الاجتماعي. حيث انبعث هذا الموضوع من جديد، بعد أن اسدل الستار على فكرة الطبقات ودورها في فهم العلاقة بين الأجزاء المجتمعية والكل الاجتماعي.

جمع "pierre Bourdieu" الكثير من المفاهيم والمعطيات الأنثروبولوجيا مع التأويلات الماركسية، فأنتج النظرية البنيوية التكوينية. ومضمونها أنه أن الناس بإمكانهم تطوير علاقاتهم الاجتماعية بصفة جمعية وضمن استراتيجية تتحقق لهم منها الرضى وليس كما يبدو التزاما بالقوانين. لذلك يرى انه لفهم مجتمع ما علينا فحص نظامه في مسألة الرابط الاجتماعي ، ضمن المسافة الفاصلة بين الوعي الفردي داخل الجماعة و الطبقة والوعي الجمعي الذي تمثله الطبقة المهيمنة (Martuccelli, sociologie de la modernité, 2007). ويشير بورديو مستلهما من ماركس، ان الافراد لا يعون الاكراهات الي يعيشون فيها وبالتالي لمعاني افعالهم الاجتماعية خاصة. لأن المجتمع بالنسبة اليه مشكل من حقول اجتماعية متعددة الابعاد، حيث تتموضع ضمنها الجماعات الاجتماعية على اساس تمايزها الاجتماعي، الذي يتجلى في انماط العيش المميز برأسمال ثقافي يظهر في الاذواق ومستويات الشعور الفني واللغوي. كما يرى بورديو ان دور عالم الاجتماع ضمن هذا المنظور يكمن في فضح الهيمنة في مجال الرابط الاجتماعي من خلال تحريك جملة من المفاهيم وأهمها مفهوم "Habitus " أو ما يعبر عنه المتصل الوراثي (بورديو. 2012. الصفحات 214-221) وهي آلية اجتماعية مادية ورمزية تمارس قهرا حتميا على صلب العلاقات الاجتماعية بما يخلق التهميش بل وتبرره ايديولوجيا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3. المدرسة التفاعلية وسوسيولوجيا الفعل ومسالة الرابط الاجتماعي

طورت المدرسة التفاعلية فكرتها عن الرابط الاجتماعي، من خلال مبدأ التفاوض بخصوص التعليمات الاجتماعية ذات الطابع الكلي، متجاوزة اياها بالعودة الى التقليد المعرفي الذي ارساه "Gabriel Tard" بعد جرد نقدي لأطروحة دوركايم، بخصوص مسألة الحتمية الاجتماعية، والتحول بالتالي من القراءة الميكروسيولوجية الى الماكروسيولوجية،عكس ما كانت عليه القراءة السوسيولوجيةفي مجال رسم موضوع علم النفس الاجتماعي،الذي تصدى بهذا العنوان، بطريقة امبريقية لمسألة الرابط الاجتماعي كإطار تحليلي لديناميكية الجماعة، في تمثيلها للضوابط الاجتماعية وتأويلها للعلاقة مع الكل الاجتماعي. ويعبر عن ذلك "Jean Pierre Terrail" كالتالي: «كلما مرت المجتمعات بجملة من التناقضات، كلما أثارت الفاعلون للتحرك وبالتالي تزيد تفاعلاتهم لترسيم وتعريف التعاقدات الاجتماعية، التي توطد مرجعتهم الثقافية"

نستنتج اذن، أن بالنسبة لهذا التوجه تكون التناقضات بمثابة محركا للفعل الاجتماعي، اذ تصدرت دراسة الحركات الاجتماعية في الستينات، قائمة اهتمام الباحثين وكذلك شكلت مجالا خصبا لتفعيل هذه القراءة التاريخانية لواقع المجتمع الفرنسي بالخصوص (Boufartigue e. a., 2009)

أما سوسيولوجيا الفعل وممثلها "Alain Touraine" فيتميز اسلوبها التحليلي بالمزاوجة الجدلية بين الماضي والحاضر في طرح اشكالية انتاج الحتميات الاجتماعية المتحكمة في الرابط الاجتماعي، حيث يتلخص البحث هنا في مجالات تحرير الفرد من سطوة المجتمع والايديولوجية وفق الطرح البنيوي.

اضافة الى اعتبار ان الافراد والجماعات، تعي جيدا منتجها، وهو موقف "توران" الثابت الذي يسلم فيه تسليما مطلقا بالقيم التاريخية ، مقترحا ضرورة الانخراط في مجال الفعل الفردي، ضمن الوضعية التفاعلية مع الاقران، لأجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهم تأويلات السلوك مع الاخر، ودراسة كيف يحاول الفرد برابطه مع بقية الافراد الانسلاخ من الحتميات الاجتماعية للمجتمع الكلي.

وبهذا يقرأ توران مشهد الفعل اليومي، اين يتجسد الرابط الاجتماعي من خلال علاقة النظام الثقافي والتنظيم الاجتماعي مع روابط اجتماعية ماضية في مجال اعادة ميلاد جديدة متجددة ومستمرة للرابط الاجتماعي (Boufartigue a. e., 2009) من خلال تخليص الهوية نضاليا، من المرجعية القانونية ذات الصبغة الحتمية والتعبير عنها بصيغ تصف تدخل الارادة الانسانية في سبيل خلق الوجود الذاتي وبتسخير المجتمع لهذه الغاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner